وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

سنن النهوض الحضاري من القرآن الكريم

اسم الباحث/ـة

د/ أحمد عبد الجليل النذير محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

يُعد ما صنعه نبينا صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب وما حولها أسرع النهضات في تاريخ البشر؛ بشهادة المؤرخين من أهل الإسلام ومن غيرهم، حيث يقول استودارد (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الإنسان)[١]، والأعجب أن الناس في جزيرة العرب كانوا في قعر سحيقة من الانحطاط الحضاري؛ فكيف غيرهم نبينا صلى الله عليه وسلم في أوجز زمن تشهده الحواضر في صيرورتها نحو أهدافها؟، إن من أعظم أسباب هذه النهضة الأعظم اتباع السنن، وقد بين الله تعالى معالم هذه السنن الخالدة في كتابه الكريم، فهداية القرآن فيها الشمول والكمال والتمام ومقصدها صلاح الدارين. إن أهم خصائص السنن أنها ثابتة وعامة ومطردة، قال تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [٢]،

وإن من الواجبات الملحة على العلماء في زماننا المعاصر العكوف على هذه السنن معرفة وتطبيقاً وتبييناً للناس، لأجل تحقيق الشهود الحضاري للأمة وللذب عن حياض الشرع ورد الشبهات المثارة والقدرة على فهم الواقع و استشراف المستقبل وترتيب الأولويات والأخذ بأسباب النصر وعوامل التمكين وتحقيق معاني الاستخلاف في الأرض، وإن من أهم الثمرات التعرف على منهجية القران في تبيين السنن وتوضيح معالمها؛ إذ أن ذلك سيفتح آفاقاً رحبة لعلاج مشكلات الواقع انطلاقاً من هدي القرآن، ومن أهم المحاور التي تبين سنن النهوض في القران الكريم: سنن بناء الإنسان، وسنن بناء الجماعة ومن ثم

(١) حاضر العالم الإسلامي، لوثورب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٥٢هـ، ج١، ص١.

(٢). سورة فاطر ، الاية ٤٣.

المجتمع، معالم الاقتصاد وعالم المسخرات، أولويات البناء الحضاري، كيفية التعامل مع الآخر على اختلاف منطلقاته، علاج المشكلات ومواجهة التحديات، إن القرآن الكريم مليء بالسنن الهادية الكفيلة ببعث الأمة وتعزيز شهودها الحضاري، لكن ذلك رهين بمنهاج التعامل مع القرآن واستنطاق آياته وقصصه، قال الله عز وجل ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

[1] سورة ص ،الآية ٢٩.

المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات:

السنة لغة: تنوعت وتعددت معاني السنة في اللغة، ومن بين هذه المعاني التي أشار إليها العلماء ما يلي:

السيرة: قال الفيروزآبادي السنة بالضم السيرة والطبيعة، ومن الله حكمه وأمره ونهيه[١]، ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾[٢]،

وقال الرازي وابن منظور السنة السيرة [٣]، فلا تجزعن عن سيرة أنت سرتها، فأول راضٍ سيرة من يسيرها.[٤]

الطريقة: يقال استقام فلان على سنن واحد أي طريقة [٥] ، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق، وجاءت الريح سناسن أي على طريقة واحدة[٦]، قال ابن الجزري في النهاية السنة وما تصرف منها الأصل فيها الطريقة والسيرة، وفي حديث المجوس (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[٧]،

---

(١) القاموس المحيط، للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، لبنان– بيروت، ص ١٢٠٧

(٢) سورة الكهف الاية ٥٥

(٣) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، طبعة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ١/ ٣٢٦.

(٤) لسان العرب، لابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى، مادة سنن ١٣/ ٢٢٠.

(٥) مختار الصحاح ، الرازي، ١/ ٣٢٦

(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ١٥٥٨

(٧) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ، كتاب الزكاة ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس ، حديث رقم ٦١٦.

أي خذوهم على طريقتهم [١]،وقال الإمام الرازي في تفسيره السنة الطريقة المستقيمة[٢] .

المثال: كل من ابتدأ أمراً عمل به قوم من بعد قيل هو الذي سنة، قال نصيب: كأني سننت الحب أول عاشق من الناس إذ أحببت من بينهم وحدي، وبنى القوم بيوتهم على سنن واحدٍ: أي على مثال واحدٍ[٣]، وقال الإمام الرازي في تفسيره السنة: المثال المتبع[٤].

العادة: السنة هي العادة والنهج[٥] ، وقيل جريان الشيء واطراده في سهولة[٦] ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار [٧].

الحكم والشرع: قال ابن منظور في لسان العرب وسنة الله أحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله للناس أي بينها[٨].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، ج٢/ ١٠٢٢

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربى، لبنان . بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ، ٩/ ٣٦٩ .

(٣) لسان العرب ، لابن منظور ١٣/ ٢٢٠.

(٤) مفاتيح الغيب ، تفسير الرازي ، ٩/ ٣٦٩.

(٥) لسان العرب لابن منظور ، ١٣/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٦) مقاييس اللغة أحمد بن فارس، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، طبعة دار الفكر ، لبنان . بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، (٣/ ٦٠ – ٦١).

(٧) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني ، تحقيق أنور الباز – عامر الجزار ، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ١٣/ ٢٠ .

(٨) لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٢٢٦.

السنة اصطلاحاً:

تعريف أول: عندما تنسب السنة لله تعالى فهي تعني الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم ، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة ، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته ، وهي توصف بصفة الربانية والعموم والشمول والثبات والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكل زمان ومكان(١).

تعريف ثانٍ: وقيل هي مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون، ويستفيد منها الإنسان بما يؤهله فيسخرها ويستفيد منها، إنها نظم هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه، المسيرة له وفق ما أراده الخالق المبدع جل شأنه، ومجالها الواسع: السماوات والأرض والحياة والكون والإنسان(٢).

تعريف ثالث: هي قوانين الله تعالى المطردة الثابتة التي تجري بموجبها أحداث ووقائع الحياة البشرية، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية نهوضاً وسقوطاً، وترتبط فيها المقدمات بالنتائج بمقتضى عدل الله تعالى(٣).

وقد وردت لفظة السنة في القرآن الكريم باللفظ والمعنى في ستة عشر موضعاً، وقد وردت مفردة في أربعة عشر موضعاً، وجمعاً في موضعين، وجاءت مضافة إلى الله تعالى في تسعة مواضع، ومضافة للرسل في موضع واحدٍ، وجاءت نكرة مجردة

---

(١) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي ، رشيد كهوس ، مركز الماجد للثقافة والتراث ، دبي ط ١ ، ٢٠١٧م ، ص ٢٢.

(٢) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، إبراهيم بن علي الوزير، دار الشروق، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، مصر – القاهرة، ص ٧.

(٣) سنة الله في عقاب الأمم في القرآن، عبدالسلام بن نصر الشريف، دار المعراج الدولية للنشر، السعودية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م ، ص١٣.

عن الإضافة في موضع واحدٍ[١]، وهذه المواضع هي ما أشارت إليه آيات القرآن نصاً، وهناك مواضع أخرى تفهم منها السنن في آيات القرآن بناء على سياق الآيات ومعناها ودلالتها وذلك في مواضع كثيرة، كقول الله عز وجل : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾[٢]، ليأت ابن خلدون من بعد ذلك ويستنبط من ههنا سنة مطردة فيقول في مقدمته : الظلم مؤذن بخراب العمران[٣].

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبدالباقي ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر – القاهرة ، ١٣٦٤هـ – ١٩٣٩م ، ص٣٦٧

(٢) سورة الكهف الآية (٥٩)

(٣) مقدمة بن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ، مصر – القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م، الجزء الثاني، ص٣٧٨.

المبحث الثاني: أهمية السنن وخصائصها

أولاً: أهمية العلم بالسنن والعمل بمقتضاها:

يقول العلامة الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[1] "، إنَّ إرشاد الله إيانا إلى أَن له في خلقه سننًا يوجبُ علينا أَن نجعل هذه السننَ علمًا من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أَكمل وجهٍ، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غيرها من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل إليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"[2]. ويقول الشيخ محمد عبده: "ولا يُحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت الأصول والقواعد، وفرع منها الفروع والمسائل، ولما اختلفت حال العصور اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرهما، كانت محتاجة إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم السياسة الدينية، سمه بما شئت فلا حرج، فالحياة لم تخلق عبثاً، إنما خضعت لسنن وقوانين، وأمر البشر في اجتماعهم وما يعرب فيها من الصراع والتدافع الحضاري وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة والتداول الحضاري يجري على طريقة قويمة، وقواعد ثابتة، ومن سار على سنن

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٧).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة، طبعة ١٩٩٠ م ، ١١٤/٤.

الله ظفر بالفوز وإن كان ملحداً أو وثنياً، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً أو نبياً، وعلى هذا يخرج انهزام المسلمين في أحد، وفي بداية معركة حنين، ويتخرج انهزامهم على الأصعدة المتعددة"[١]، إذاً فالعمل وفقاً لسنن الله تعالى له ثمرات كثيرة ونتائج عظيمة، وكذلك التنكب عن هذا السبيل له عواقب وخيمة،

ويمكن ههنا أن نشير لبعض النتائج والثمرات التي نجنيها من العمل بمقتضى هذه السنن:

١. **التعجيل بنهضة الأمة وانتصارها:**

إن انتشار الإسلام وانتصاره على عهده صلى الله عليه وسلم وبعده بعقود ليعد معجزته التي شهد بها وأثبتَها كثير من الأعلام من الشرق والغرب؛ فمِن الشرق يقول الإمام محمد عبده" **:** اندفَع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها، ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول وقهروا الأمم، وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قِلَّة عدَّتِهم وعددهم، وعدم تعوُّدهم على الأجواء المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلُّوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليُعدُّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات"[٢] ، ويقول بديع الزمان النورسي: "فانتخب أيها المعاند من أكمل الفلاسفة مائة ، فليسعوا مائة سنة فإن فعلوا جزءاً من مائة جزء مما فعله محمد العربي عليه

(١) المرجع السايق ١١٤/٤ .

(٢) مجلة المنار ، لمحمد رشيد رضا، نقلاً عن العروة الوثقى، للإمام محمد عبده، مصر – القاهرة، عدد غرة ربيع الأول – ١٣١٨هـ ، يونيه – ١٩٠٠م، (ص:٩٣، ٩٤)، ينظر الشيخ محمد عبده – الأعمال الكاملة

الصلاة والسلام بالنسبة إلى زمانه "[١]، ومن أعلام الغرب ننقل عن م.ن.روي الذي يقول" بحق إن انتشار الإسلام هو معجزة، وهو أكبر آيات الأنبياء وأروعها إعجابًا وخرقًا."[٢]، ويقول ستودارد: "كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دُوِّن في تاريخ الإنسان، ظهر الإسلام في أمة كانت مِن قَبلِ ذلك العهد مُتضعضِعة الكيان، وبلادًا منحطَّة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود، حتى انتشر في نصْف الأرض مُمَزِّقًا ممالك عالية الذُّرى، مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًا قديمة كرَّت عليها الحِقَب والأجيال، ومُغيِّرًا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيًا عالَمًا حديثًا متراصَّ الأركان، هو عالم الإسلام، كلما زدنا استقصاءً باحثين في سرِّ تقدُّم الإسلام وتعاليمه زادَنا ذلك العجب العجاب بهرًا، فارتددْنا عنه بأطراف حاسرة [٣].

إن من أهم أسباب الانتصارات وبلوغ الغايات والتعجيل بنهضة الأمة المسلمة في بواكير الدعوة أن أمة الإسلام كانت تتبع منهجاً قويماً في التعامل مع تحديات الواقع ومشكلات الحياة، منهجاً مصدره الوحي الإلهي الذي أنزله الخالق تبارك وتعالى، وذلك يعني أن ما فيه من إرشاد وتوجيه يبلغ الكمال والتمام، فلا أعلم بالخلق من الخالق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[٤]، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم ألزم الناس لأمر ربه تبارك وتعالى لا يحيد عنه قيد أنملة، لأجل ذلك عظمت الثمرة التي جنتها الأمة

(١) اشارات الاعجاز في مظان الايجاز، بديع الزمان النورسي، شركة سوزلر للنشر، مصر- القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٨ ، ص (١٧)

(٢) المد والجزر في تاريخ الإسلام، للعلامة أبي الحسن الندوي، دار القلم — دمشق، الدار الشامية — بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ص٣٠ .

(٣) حاضر العالم الإسلامي، لوثورب ستودارد، مرجع سابق ١/١

(٤) سورة الملك الاية (١٤)

ونبيها صلى الله عليه وسلم بين أظهرها، وقد كان من توجيه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبع السنن التي أجراها ناموساً لكونه وضابطاً لخلقه، وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن المعجزات . إذا كان المقصود بها خوارق العادات والسنن كما عرفها كثير من العلماء[١] .

فنقول ههنا المعجزات كانت حاضرة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنها لم تكن من أسباب الانتصار إنما كانت من دلائل النبوة ، فلأجل الانتصار قال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾[٢]، إن كثيراً من الأمم أضاعت وقتها وجهدها في سبيل تلمس الدرب ومعرفة السبيل، فتاهت في بنيات الطريق ، وماجنت غير السراب،

وإن أدركت حظاً من النجاح في بعض شؤونها فبعد لأي وعناء وجهد وتجارب كثيرة، ودوننا بلاد الغرب في زماننا المعاصر؛ والتي أراقت الدماء وأهلكت الحرث والنسل في حروب طاحنة وصراعات دامية، وما حققت شيئاً من الرفاه إلا بعد أن وردت كثيراً من المهالك ،

أما أمة الإسلام في بداية عهدها فقد تعجلت نهضتُها وسَهُلت تبعتُها وعظُمت ثمرتها، وما ذلك إلا لوضوح المنهج الرباني وكمال الاتباع النبوي

٢. **علاج المشكلات ومواجهة التحديات:**

---

(١) المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية، ينظر الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة ، طبعة ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، ٣/٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية (٦٠)

إن من ثمرات معرفة الأمة لسنن الله تعالى في خلقه التيسير لعلاج المشكلات ومواجهة التحديات، فإذا كان أمر الكون مضبوطاً بقانون ثابت ونسق مطرد فالنتائج بالضرورة كذلك، وكل انحراف عن السنن سيتبعه خلل في النتائج لامحالة، ولأجل ذلك قص الله تعالى علينا الكثير من أخبار السابقين عظة وعبرة، فإن أصابوا في أمر تبعنا دربهم واستننا بسنتهم، وإن أخطؤوا في أمر أخذنا حذرنا وسلكنا سبيلاً غير سبيلهم، "فالوظيفة الأساسية للقيم والسنن هي في تقويم الاختلالات وردها إلى حالة الصواب والسواء "[1]،

وكل أمة ستواجه بالضرورة مشكلات وتلقى عقبات، فإن لم يكن لها وعي مسبق تستشرف به ما ستلقى ستقع في ورطات الأمور التي يصعب الفكاك منها، إن ميزة الوعي السنني أنه ييسر لنا " استخلاص الدروس والعبر التي تستفيد منها الأمة المسلمة وتسترشد بها لتصحح مسارها العمراني البشري على النحو الذي يحقق لها المعيشة الهنية في طمأنينة وسلام "[2]،

ومن أكثر الأمم التي قص الله تعالى أخبارها في القران الكريم بني إسرائيل، الذين وقعوا في كثير من المشكلات وقارفوا كثيراً من المنكرات فأصابهم ما أصابهم، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[3]،

فإذا فهمنا سنة الله تعالى فيهم حينها نستطيع أن نتنبأ بما يمكن أن يواجهنا من مشكلات أو عقبات، وإذا كان ثمة مشكلة عرفنا أيسر سبل العلاج وأقصر طرائق الحل.

---

[1] الاستخلاف والعمران في ضرورة الوعي بقيم و سنن النهوض والسقوط ، سعيد شبار ، مجلة التفاهم، ٢٠١٩م ، العدد ٦٣، (٥١/١٧) .

[2] علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، مرجع سابق، ص١٨.

[3] سورة النمل الآية (٧٦).

٣. **التأهيل والإلهام القيادي:**

إن من وظائف القائد وأدواره المنوطة به استشراف المستقبل وصناعة الأهداف و المسار الذي تسلكه الجماعة وتنضبط به، وهو أمر بالغ الصعوبة والتعقيد في ضوء المتغيرات الكثيرة التي تصاحب كل حراك بشري جماعي، إذ أن هناك تحديات داخلية وأخرى خارجية تكتنف هذا المسير، وإن مما ييسر للقائد أداء دوره في استشراف المستقبل والترجيح بين الخيارات وتجاوز العقبات والتحديات معرفته بالسنن الجارية والقوانين المطردة، فلئن تعددت الحادثات وتنوعت القضايا فإن السنن لن تتغير فهي ثابتة على منوالها ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٤٣﴾[1]، إن جل الحوادث التي تقع للبشر لا بد أن يكون لها نظائر من قبل قد وقعت، فإن أحسن القائد قراءة التاريخ ومعرفة السنن استطاع أن يتجاوز مشكلاته وتحدياته بسهولة ويسر وثقة وثبات، ولعل القصص القرآني و ما فيه من عظات وعبر يعطينا هذا المعنى ويشير لهذا المقصد.

ثانياً: خصائص السنن:

١. **الربانية:**

إن أهم خاصية للسنن أنها ربانية المصدر فهي مرتبطة بالله تعالى، وقد وردت في كثير من الآيات بصيغة مباشرة تبين ذلك ، قال الله عز وجل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾[2]، وحتى الصيغ الأخرى التي تُنسب فيها السنة للمرسلين أو الأولين فالمقصود بها سنة الله تعالى فيهم، إن نسبة السنن إلى الله تعالى أمر من الأهمية بمكان، فبمقدار معرفتنا للسنن وعملنا بها واستفادتنا منها كان ذلك دافعاً لنا للارتباط بالله عز وجل، استزادة من العلم

(١) سورة فاطر الآية (٤٣).

(٢) سورة الفتح الآية (٢٣).

الذي أنزله، وعملاً بالهدي الذي يسره، وشكراً على الرزق الذي بسطه، بخلاف ما ورثته الحضارة الغربية المادية المعاصرة من تعارض بين العلم والإيمان ومن صراع مع الطبيعة، فالفلسفة التي نتجت عن النهضة الصناعية الغربية بُني معظمها على نسق الصراع بين الإنسان والطبيعة، أو بين الإنسان وما وراء الطبيعة. إن الإيمان بربانية السنن ومعرفة أنها من عند الله تعالى أمر يبعث كذلك على الثقة في نتائج هذه السنن وثمراتها وتساميها على كل نقص وخللٍ، ويبقي التحدي بعد ذلك أمام البشر في التعرف على هذه السنن واقتفاء آثارها.

٢. **الشمول:**

إن السنن التي تحكم عالم الذرة المتناهية الصغر هي نفسها السنن التي تحكم عالم المجرة المتناهية الكبر، فلا فرق ما بين صغير وكبير أمام السنن الربانية الشاملة ، التي تحكم الكون كله ، وسنن الله عز وجل لا تحكم العالم المادي وحده ، بل هي تحكم ما في هذا الوجود من خلائق ، سواء كانت مادية كالذرة والكهرباء والحرارة، أم كانت معنوية كالعاطفة الإنسانية والسلوك الاجتماعي، وهذا ما تأكده آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، فالكل خاضع لله تعالى وخاضع لسننه التي فطر الخلق عليها، ومن الأمثلة القرآنية التي تبين شمول السنن وإحاطتها ما بينته لنا آيات القرآن الكريم في شأن السنة التي تحكم سعادة الإنسان وشقاءه ، فقد جاءت بصورة معادلة رياضية لا تقبل الجدل ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [2]، فالسعادة والشقاء – كما يقرر الحق

(١) سورة آل عمران، الآية (٨٣)

(٢) سورة طه ، الآيتان (١٢٣– ١٢٤)

تبارك وتعالى – رهن بالتزام شرع الله ، أو النأي عنه ورفضه ، وهذه سنة ربانية تحكم حياة البشر بعامة ، وستظل تحكمها إلى يوم القيامة، ولو تتبعنا الآيات القرآنية ، لوجدناها تعرض لنا الدليل تلو الدليل على أن النفس البشرية خاضعة لسنن صارمة ، لا تقبل التبديل ولا التحويل

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك من نطاق النفس البشرية، إلى نطاق المجتمع، فإننا سنجده أيضاً محكوماً بسنن ربانية صارمة شأنه شأن النفس ، ولا عجب في هذا فإن المجتمع في الحقيقة ليس إلا مجموعة من الأفراد ، وأن حال المجتمع يعكس سلوك هؤلاء الأفراد أنفسهم ، ومن ثم فإن مصير المجتمع بأسره مرهون بسلوك أفراده، نجد مصداق هذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] ، وقوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ، وقوله كذلك: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[3] ، وفي هذا دليل على أن سلوك الناس الذين يشكلون مجتمعاً ما ، يعد بمثابة مقدمة لنفاذ السنة المرتبطة بهذا السلوك، وبمعنى آخر فإن انتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائياً، بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط وجهته.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن حياة مجتمعات مختلفة ، منها من عاش حياة رغيدة آمنة ، ومنها من ذاق لباس الجوع والخوف، ومنها من باد وهلك بعذاب أليم، وتأتي هذه اللمحات القرآنية لتلفت انتباهنا إلى وجود سنن ربانية تحكم حياة المجتمعات البشرية قاطبة ، وتقرر مصيرها، وقد كان البيان القرآني واضحاً، حين قرر أن رقي المجتمعات أو انحطاطها مرهونان بالتزام شريعة الله، أو النأي

(١) سورة الرعد، الآية (١١)

(٢) سورة الأنفال، الآية (٥٣)

(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٥)

عنها، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (١).

٣. **خصوصية السنن:**

لكل سنة من السنن التي فطر الله عليها أمور خلقه خصوصيتها المتفردة ، ونعني بها أن السنة التي يتم بها أمر من الأمور هي واحدة لا تقبل التعدد ، فكل سبب يولد النتيجة المقدرة له وحده ، ولا تنفصل النتائج عن أسبابها ، وكل مجموعة متفقة في حقيقتها من مجاميع الطبيعة يلزم أن تتفق كذلك في الأسباب والنتائج ، أي يلزم أن يكون لها سنة مخصوصة تتحكم فيها ، ومثال هذا ما ذكرناه من خضوع العناصر الكيميائية المختلفة للسنة أو القانون، فهذا القانون هو الذي يحكم تفاعل العناصر الكيميائية بعضها مع بعض، إذ لا يتحد عنصر مع عنصر آخر إلاّ وفق نسبة محددة ، وما لم يتوافر العنصران بالنسبة المطلوبة فإنهما لا يتحدان معاً، ولا نحصل منهما على المركب الذي نريد، وكذلك هو كل أمر في هذا الوجود، فكل أمر خاضع لسنة محددة لا يتم إلا بها، ولا يمكن أن يتم بغيرها من السنن.

٤. **الثبات:**

السنن ثابتة وثباتها يعني أنها تبقى على حالة واحدة فلا تتبدل ولا تتحول ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٢)، والتبديل في اللغة: يعني التغيير(٣) ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) ،

(١) سورة الأعراف، الآية (٩٦)

(٢) سورة فاطر الآية (٣٤).

(٣) مختار الصحاح ٧٣/١

(٤) سورة النحل الآية ١٥١

وقال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّ قَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] ، وأما التحويل في اللغة: فهو من التحول وهو التنقل من موضع إلى موضع أو من حال إلى حال وعن الشيء انصرف عنه إلى غيره.[2]

فهذان الأمران (التبديل والتحويل) لا يطرءان أبداً على ما بث الله من سنن في هذا الوجود، فإن سنن الله باقية على حالها، وهي مستمرة على هذه الحال من الثبات إلى أن يشاء الله ، يقول السعدي في تفسيره: فإن سنة الله في الأمم واحدة [3]، وفي هذا ما فيه من دلائل بالغة، توحي برحمة الله عز وجل بالعباد، فلولا ثبات السنن على هذه الشاكلة لما أمكن للبشر أن يسخروها أو يستفيدوا منها، ولما كان استخلاف البشر في الأرض ممكناً، إذ كيف يمكن أن يستخلفوا في عالم هلامي لا يثبت على حال ؟، وكيف يمكن أن يسخروا مثل هذا العالم الذي لا يحكمه قانون، ولا تضبطه سنة ؟، ومن جهة ثانية لو لم تكن سنة الله ثابتة على هذه الحال لما كان في هذا الوجود توازن ولا استقرار، ولكانت الفوضى حينئذ هي سمة الخلق كله، وهذا ما يتنافى مع الواقع المشهود، الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار، كما قال تعالى في وصفه ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾[4]، إننا حين نصف

(١) سورة الأعراف الآية ٩٥

(٢) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، باب الحاء ، ٢٠٩/١

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ٨١٣/١ .

(٤) سورة القمر الآية ٣

السنن بالثبات، فإننا نعني بذلك ارتباط الأسباب بالمسببات، أو ارتباط العلة بالمعلول، ارتباطاً ضرورياً لا ينفصم إلا أن يشاء الله.

٥. **الاطراد:**

إن شئون الاجتماع البشري كسائر أَطوار العالم ، لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل[١]، والاطراد في اللغة يعني التتابع والتسلسل، والمطَّرِد وهو المتتابع في سيره ولا يَكْبو[٢] ، ونعني باطراد السنة تتابع حصولها ، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها ، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها، وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم أشارت إلى صفة الاطراد في سنن الله، منها قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾[٤]، ويقول تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[٥]، ويقول تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾[٦]

إن من يدقق النظر في أحكام الشرع المختلفة ، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة ، التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، إنَّ ترك شيء مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دوماً في الدنيا قبل الآخرة ، وإن

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة، ١٩٩٠ م، ٥٠٤/٩

(٢) لسان العرب ، ٢٦٧/٣

(٣) سورة محمد، الآية (٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٢٠).

(٥) سورة النحل الآية (٩٧).

(٦) سورة النساء الآية (١٢٣).

الإتيان بشيء قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة في الدنيا قبل الآخرة ، وفي هذا غاية العدل والحكمة والتدبير، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة، والمعاني المعتبرة، في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت ، واقتضائها لأحكامها ، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها(١)، إن القرآن الكريم بتأكيده المستمر على اطراد السنن الكونية والاجتماعية وتكررها وتسلسلها وتتابعها يكون قد جاء برؤية علمية للتاريخ والاجتماع، أي أن هذه السنن مطردة ، ليست عشوائية وليست الرابطة بين العلل والمعلولات قائمة على الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي وعلمي، لأن أهم ما يميز القانون العلمي الخاضع للاستقراء والملاحظة والتجربة عن بقية المعدلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف(٢).

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات ، الأزهرية، مصر– القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٢٣٣/١

(٢) السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، أ.د. توفيق بن أحمد الغلبزوري، على الموقع الالكتروني http://iiit.org.ma/index.phpD

المبحث الثالث: من سنن النهوض الحضاري في القرآن الكريم

أولاً: حاجة المجتمعات إلى الإصلاح والمصلحين دائمة:

الضعف البشري يغري كثيراً بالميل عن الحق والتنكب عن السبيل، بما يحتم وجود القيادة الناصحة الهادية المهدية التي تسعى لرد المجتمعات إلى رشدها، وما من أمة شذت عن هذه القاعدة ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾(٢)، وإذا قصرت المجتمعات في أداء واجبها تجاه انحراف أفرادها والأخذ بيد مفسديها أوشك العذاب أن يعمها، قال الله عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾(٣) ،

وقد كان من أسباب خيرية الأمة الخاتمة أنها أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله عز وجل: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾(٤)، فغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفقد المجتمع خصائص الترميم والتجدد إذ أن من طبيعة الحياة الدنيا ديمومة النقصان، وذلك يتبدى أوضح ما يكون في أجساد الكائنات الحية إذ انها تتجدد يوماً بعد يوم كلما فنيت خلية نبتت أخرى مكانها، ودون هذه

(١) سورة فاطر الآية (٢٤)

(٢) سورة المائدة الآيتان (١٥ ، ١٦)

(٣) سورة المائدة الآيتان (٧٨، ٧٩)

(٤) سورة آل عمران الآية (١١٠)

التراتبية تهلك الكائنات، وكذلك المجتمعات يتحتم فيها ظهور الزيغ والضلال؛ فإن تراكم وطغى هلكت المجتمعات وفقدت شروط البقاء،

قالت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها: (أنهلك وفينا الصالحون)، قال صلى الله عليه وسلم: (نعم، إذا كثر الخبث)[١]،

وحرصاً على صلاح البشر وعوناً من الله تعالى للإنسان على تحمل تبعته وأداء تكليفه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وبمقدار ما تكثر الأدواء في المجتمعات بمقدار ما ازدادت الحاجة للمصلحين، وذلك قد يفسر لنا سر كثرة الأنبياء في بني إسرائيل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي)[٢]،

وباعتبار احتياج الأمة للإصلاح بتوفر دواعيه تحتم أن يحمل التبعة بعد الأنبياء من يؤدى دورهم وينوب عنهم في غيابهم، يقول صلى الله عليه وسلم "**العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء ما ورثوا ديناراً ولادرهماً ولكن ورثوا علماً فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**"[٣]،

ويقول صلى الله عليه وسلم (إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كُل مائة سنةٍ من يجدد لها دينها)[٤].

---

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري ،كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج ، حديث رقم ٣٣٤٦ ، ومسلم في باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج وما جوج حديث رقم ٢٨٨٠

(٢) الحديث متفق عليه ، رواه البخاري ،كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ماذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم ٣٤٥٥ ، ومسلم ، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول حديث رقم ٤٨٧٩ .

(٣) سنن أبي داوود ، باب الحث على طلب العلم ، حديث رقم ٣٦٤٣ .

(٤) سنن أبي داوود ،كتاب الملاحم ، باب مايذكر في قرن المائة ، حديث رقم ٤٢٩٣ ، والحاكم في المستدرك ،كتاب الفتن والملاحم حديث رقم ٨٥٩٢ .

ثانياً: إصلاح الأمم يبدأ بإصلاح قاعدة المجتمع:

من آيات القرآن الضابطة في شأن تغيير أحوال المجتمعات قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]، ففي هذه الآية إشارة للبنة الأساس وموضع البداية الذي تنطلق منه معالم التغيير والإصلاح للمجتمعات، فتغيير الإنسان في ذاته وإعادة بنائه وفقاً للقيم الفاضلة والأخلاق السامية والمفاهيم الصحيحة تمثل السبيل الأرشد والمنهج الأقوم والطريق الأقصر لتحصيل النهضة وإصلاح المجتمع، وقد لخص الله تعالى رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم في آية واحدة تبين ذلك، قال الله عزوجل ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2] ، هذه الآية تبين أن معظم الجهد النبوي انصب على بناء الإنسان وإعداده، وكذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين ذلك، فإذا أحسنا هذه البداية فقمن بنا أن نقطف الثمرة في الختام بإذن الله تعالى.

إن تغيير المجتمعات لا يكون عن طريق التعجل بامتلاك السلطة وتولي زمام الملك وتسنم سدة الحكم، فذلك أمر وإن صنع تغييراً فإنه يكون سطحياً وجزئياً ولادوام له مادامت القاعدة المجتمعية ضعيفة في انتمائها وهشة في بنائها، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد عرض عليه الملك في مكة ابتداءً فرفض، عندما قالوا: (لو أردت ملكاً لملكناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك)[3]،

---

(١) سورة الرعد الآية (١١) .

(٢) سورة الجمعة الآية (٢)

(٣) رواه البيهقي في " دلائل النبوة " باب جماع أبواب مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢ / ٢٠٥)، وحسَّنه الألباني في التعليق علي، و أورده ابن هشام في السيرة ٣١٣/١.

وذلك لا يعني التخلي عن شأن الحكم بالكلية إنما الإشارة ههنا لأمر موضع البداية وترتيب الأولويات ، فالبداية في الإصلاح تكون بالإصلاح القاعدي الذي عند تكامل أركانه سينعكس شأنه على أمر الحكم وقضايا السياسة والقيادة، وإلا فإن المصلحين عادة ما يكون خطابهم عاماً لجميع أفراد الأمة وجماعاتها، للقاعدة وللقمة ، للعامة وللزعامة، ولكن من عجب أن الإصلاح في صيرورته يظهر أثره كأوضح ما يكون في قاعدة المجتمع، وذلك أمر مطرد وسنة ما ضية، قال الله عز وجل: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ (١)
وفي الآيات ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾(٢) ، وفي الخبر سأل قيصر أبا سفيان: (فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، قلت، بل ضعفاؤهم)(٣).

ومن عجب أن معالم الإفساد في من يريدت تلوح من علٍ وتتنزل من فوقٍ، قال الله عزوجل: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾(٤)، فعلى الدعاة والمصلحين أن يرعوا ويخاطبوا جميع فئات المجتمع ما وجدوا لذلك سبيلاً، لكن كذلك عليهم أن يعرفوا هذه السنن في المجتمعات حرصاً على بلوغ الهدف بالطريق الأمثل والمنهاج الأقوم، وسعياً للعلاج الناجع لكل خلل، وعلى من يريد الاصلاح أن لا يتعجل الخطوات ويبتسر المراحل، فليس ذلك هو المنهج النبوي أو طريق الاصلاح الراسخ في وجه عاتيات الفتن، لابد للدعاة والمصلحين من نهج سبيل

(١) سورة الشعراء الآية (١١١) .

(٢) سورة هود الآية (٢٧) .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب دُعاء النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الإسلام والنبوة ، وأَن لا يتخذ بعضهم بعضًا أَربابًا من دون الله ، حديث رقم ٢٩٤١ .

(٤) سورة الإسراء الآية (١٦) .

الدعوة عبر الإعداد والتأهيل والتزكية ثم اصطفاء العناصر التي تصلح لقيادة الأمة وإدارة شأنها.

ثالثاً: إصلاح المجتمعات يبدأ ببناء الإنسان بناءً شاملاً:

يقول الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [1]، ههنا وعد من الله تعالى بالعز والتمكين والسؤدد، ولكن جاء وعد الله في هذه الآية مقروناً بشروطه، فمن **شروط التمكين في هذه الآية أمران: أولهما:** الإيمان.

وثانيهما: العمل الصالح، وكذلك هناك لوازم في الآيات لاستمرار التمكين لابد من رعايتها.

إن الاستخلاف في الأرض إنما هو لعباد الله الصالحين؛ لأن الاستخلاف قائم على تعمير الأرض وإصلاحها ونشر الخير فيها، وإحسان استخراج كنوزها وبركاتها، ولن يتحقق إلا بالإيمان والعمل الصالح والسير في الأرض على أساس شرع الله ومنهاجه، انطلاقاً من هذه الآيات نقول بأن أساس النهضة هو بناء الإنسان وإعداده حتى يكون مستحقاً للنصر والتمكين، وهذا الإعداد لابد أن يكون إعداداً شاملاً ومتكاملاً يحيط بالنفس والعقل والجسد، فالإنسان كائن معقد متعدد الجوانب، وكل جانب منه له احتياجه فالنفس تحتاج تزكية، و العقل يحتاج هداية وإرشاداً ، والجسد يحتاج رفقاً وعافيةً، إن الصياغة المتكاملة للإنسان تنشئُ إنساناً ربانياً وحضارياً؛ مستقلاً بذاته ومتحداً مع أمته، إن طرائق الإصلاح والتغيير التي بينها الله تعالى في كتابه تقدم لنا أقصر الطرق وأوجز السبل لإصلاح المجتمعات.

---

(١) سورة النور الآية (٥٥) .

إن البناء المتكامل للإنسان نقصد به رعاية الجانبين المهمين للإنسان، فالجانب الأول هو البُعد العقلي والذي يحتاج إلى العلم النافع والهدي الراشد والمفاهيم الصحيحة، وقد رعت شريعة الإسلام هذا الشأن كأعظم ما يكون، فكان أول ماتنزل على النبي صلى الله عليه وسلم هو قول الله عز وجل : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [1]، إعلاء لمكانة العلم وتعريفاً بأثره في شؤون الدين وشؤون الدنيا، ثم تنزلت الآيات والسور بعد ذلك تضبط الوجهة وتصوب المسير وتصحح المفاهيم، فتعلم أهل الإسلام كيف يتعاملون مع قضايا الشريعة و أمور الطبيعة، ومع قضايا العبادات وقضايا المعاملات، وكيف يتعاملون مع الموافق في الدين ومع المخالف، ومع قضايا المال وشؤون الحكم وقضايا الأسرة وغير ذلك من أمور ضبطت مفاهيمها شريعة الإسلام، قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [2]، والجانب الآخر في الإنسان هو البعد النفسي وهو من الأهمية بمكان، فلا فائدة لعلم لا يجد محلاً صالحاً يحتويه، وإصلاح النفس في القرآن يشار إليه عادة بالتزكية ومرادفاتها من معانٍ، فالنفس المزكاة هي النفس الصالحة المؤهلة لاستقبال أنوار الحق، قال الله عز وجل: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [3]، وقال الله عز وجل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [4]، ومما يلاحظ في آيات القران أن كثيراً من ألوان الثناء القرآني على الصالحين من البشر يرتكز على أمرين أحدهما يتعلق بالعقل والآخر يتعلق بالنفس أو الجسد، وفي ذلك إشارة للبناء المتكامل للإنسان حتى يكون صالحاً ومؤهلاً، ومن أمثلة

(١) سورة العلق الآية (١) .
(٢) سورة النحل الآية (٨٩)
(٣) سورة الشمس الآية (٩)
(٤) سورة الأعلى الآية (١٤)

ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[1]، ويقول الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3]، وغير ذلك من آيات تشير لأهمية البناء المتكامل للإنسان، هذه هي البداية الصحيحة في سلم الحضارة، وفي ذلك يقول المودودي: فإذا كان الإسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليه إلا أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق

رابعاً: إصلاح المجتمعات يحتاج إلى زمن :

إصلاح المجتمعات أو إهلاكها يستغرق زمناً وأمداً، وذلك حتى تتكامل الشروط وتقام الحجج وتنتفي الموانع، ففي شأن الإصلاح يقول الله عز وجل: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ ﴾[4]، وفي شأن إهلاك المجتمعات يقول الله عز وجل : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [5]، ويقول الله عز وجل: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [6]، فعلى الداعية أن لا يتعجل النتائج أو يضيق بطول الطريق في سبيل انتصار دعوته وعلو فكرته، فإن التدرج سنة من سنن الله تعالى في خلقه في الماديات والمعنويات والتشريعات، وقد سأل موسى عليه السلام رب العزة تبارك وتعالى أن يهلك فرعون وملأه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ

(١) سورة الكهف الآية (١٣)

(٢) سورة يوسف الآية (٥٥)

(٣) سورة السجدة الآية (٢٤)

(٤) سورة الأحقاف الآية (٣٥)

(٥) سورة الكهف الآية (٥٩)

(٦) سورة الرعد الآية (٣٨)

زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)،

قال السيوطي في تفسيره : أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله، وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ قال: بعد أربعين سنة(٢)، وههنا نتساءل لم كل هذا الوقت؟ وما سر هذا التطويل؟، من الإجابات على ذلك نقول حتى يتشرب المجتمع القيم التي تؤهله لنصر الله تعالى، فإن الله لا يعطي نصره لمن لا يستحقه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٣). وقد كان ديدن النبي صلي الله عليه وسلم فى الفترة المكية أن يثبت صحابته ويوصيهم بالصبر وعدم العجلة فيقول: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)(٤)، وفعلاً نجد في سيرة النبي صلي الله عليه وسلم استطالة في أمد التربية وتطاولاً في عهدها، لنعلم أن فترات الاستضعاف وإن كانت شدة وابتلاء فإنها ممحصة ومهيئة للصف المسلم إعداداً لمقبل التحديات وجديدات الحوادث، وقد كان؛ فما شهد التأريخ فتحاً كالذي صنعه الجيل

(١) سورة يونس الآية (٨٨ ، ٨٩).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالماثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ٦٩٦/٧ .

(٣) سورة محمد الآية (٧)

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، حديث ٣٤١٦ ، والنسائي ٢٠٤/٨، وابن حبان (٦٦٩٨) ، والطبراني (٣٦٣٨) ، والبيهقي في "الدلائل" ٣١٥/٦ .

المسلم الأول في وجود النبي صلي الله عليه وسلم وبعد وفاته، فحري بناء العكوف على محاضن الإعداد والتربية، إعادة لصياغة الفرد المسلم بما يؤهله ليقوى على حمل الأمانة بحقها على وعي وبصيرة، وتلك سنة ماضية.

خامساً: إصلاح المجتمعات يحتاج جهداً جماعياً:

يقول الله عز وجل : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، إن البعد الجماعي في مساعي الإصلاح أمر حتمي إذ أن قدرة البشر قاصرة، وأعمارهم محدودة ولا كمال لأعمالهم إلا بتكامل جهودهم، لأجل ذلك نقول بأن كل مشاريع الاصلاح تحتاج إلى جهود مشتركة، حتى الأنبياء سعوا لتكوين الطليعة القائدة للإصلاح قال الله عز وجل: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [2] ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: (من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي من يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي)[3] ، وكأنه يتأول قول الله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [4]،وكان عمر رضي الله عنه ينتظر من تعداد المسلمين في مكة أن يبلغ ثلاثمائة،فكان يقول لأهل مكة: (فلو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم)[5]

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٤)

(٢) سورة الصف الآية (١٤)

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند، مسند جابر بن عبد الله ، حديث رقم ١٤٤٥٦ وأخرجه البزار (١٧٥٦) ، وابن حبان (٦٢٧٤) ، والبيهقي(١٤٦/٨)

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٤)

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ،كتاب إخباره صلى الله عليه و سلم عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم أجمعين ، حديث رقم ٦٨٧٩ .

إذاً لا بد للإصلاح من حراك جماعي، وكذلك لابد من استكمال شروط الجماعة من صف موحد ووجهة مصوبة وعمل دؤوب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (١)،

وقال الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (٢).

وقد قال صلى الله عليه وسلم (يد الله مع الجماعة)(٣)

وقال :(عليكم بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين أبعد ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة)(٤) ،

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة)(٥).

سادساً: لا نصر إلا بعد ابتلاءٍ وتمحيصٍ:

يقول الله عز وجل : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾(٦)، إن أمة الإسلام أمة موعودة بالنصر والتمكين والعز والسؤدد، ولكن ذلك كله قرين بسنة ماضية؛ وهي الابتلاء والمحن والتمحيص، يقول الله عز وجل : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٧)،

---

(١) سورة الصف الآية (٤)

(٢) سورة الأنفال الآية (٤٦)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ماجاء في لزوم الجماعة، حديث رقم ٢١٦٦.

(٤) المرجع السابق ، حديث رقم ٢١٦٥ .

(٥) أخرجه الدارمي ، باب في ذهاب العلم ، حديث رقم ٢٥١

(٦) سورة آل عمران الآية (١٧٩)

(٧) سورة آل عمران الآية(١٤١).

ومن دقيق الفقه في كان تنزل ما بينه الإمام الشافعي عندما سئل : أيهما أفضل للرجل أن يمكن أم يبتلى؟، فقال وهل يمكن إلا بعد أن يبتلى[1]، وهذا الابتلاء والتمحيص هو الذي يصنع الارتقاء النوعي اللازم لكل جماعة تريد أن تحافظ عل قوة تأثيرها وفاعلية حراكها، فلابد من معايير ضابطة للأفراد حرصاً على تحقيق أعلى درجات الكفاءة والفاعلية، ونلحظ ارتفاع سقف المعايير المرتجاة للقائد المسلم، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، فالصبر هو أسمى ماتحتاجه النفس واليقين هو أسمى مايحتاجه العقل، فبذلك تتكامل صفات القائد المؤهل الذي ينتفع بعمله ويُعمل برأيه، وقدكان تنزل نصر الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته قرين بتحقق هذه المعاني السامية وتمثل هذه القيم الفاضلة يقول الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [3].

سابعاً: تماسك الصف سبب للانتصار والنزاع سبب للفشل:

إن من أهم سنن وأسباب النصر والتمكين للمجتمعات وحدة صفها واجتماع كلمتها، وقد امتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بما يسره له من تآلف وارتباط وتوادٍ بين أفراد المجتمع المسلم، قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[4]، وقد قرنت هذه الآية بين النصر وبين أسبابه، ومن هذه الأسباب الائتلاف والاجتماع ووحدة الصف،

---

(١) الفوائد، لابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، ٢٠٨/١.

(٢) سورة السجدة الآية (٢٤)

(٣) سورة الفتح الآية (١٨)

(٤) سورة الأنفال الآيتان (٦٢ ، ٦٣)

وقد تكرر الأمر بتوحيد الصف وجمع الكلمة في القرآن كثيراً من مثال قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعَا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [2] ، إن النزاع والفرقة سبب قوي للفشل والهزيمة، وقد جعل الله للنصر أسبابه وطرائقه، وكذلك للفشل دروبه ومساربه، وإن من أولى تداعيات الفرقة والنزاع الضعف والهزيمة، وقد صوب القرآن سهامه قوية على النزاع تبييناً لمخاطره وتجلية لمساوئه، فقد ذكر الله تعالى الفشل في القرآن الكريم في أربعة مواضع ، في ثلاثة منها جاء مقروناً بالنزاع ، قال تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3]، وقال تعالى : ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [4]، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [5]

إن من التحديات المقعدة للمجتمعات أمر توحيد الأقوياء وجمع كلمتهم، ففي ذلك تبذل أوقات وتهدر أموال وقد لا يدرك المنال، يقول الله تعالى: ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ﴾[6]، لكن منهاج الإسلام في الإصلاح بما يصنعه من تزكية للنفوس وإرشاد للعقول وتصحيح للمفاهيم وتسامٍ عن الصغائر يصنع في زمن وجيز ما تعجز عنه كل الفلسفات الأخرى

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٣).
(٢) سورة الصف الآية (٤)
(٣) سورة الأنفال الآية (٤٦)
(٤) سورة الأنفال الآية (٤٣)
(٥) سورة آل عمران الآية (١٥٢)
(٦) سورة الأنفال الآية (٦٣).

التي رأينا نتاجها وما صنعته من حروب وفتن، فمنهاج الإسلام يجعل الإصلاح الفردي مدخلاً للإصلاح الجماعي، فيبدأ بتغيير النفوس قبل تغيير النظم والدساتير، وقد كان مما لاحظه ابن خلدون في حال العرب أنهم لم يتوحدوا إلا بعد أن خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، حيث يقول في مقدمته: (إن العرب لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو خبر من الدين عظيم)[1].

ثامناً: العدل أساس البقاء والنماء:

يقول الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[2]، هذه الآية تبين أن الظلم سبب مباشر للهلاك، وفي تفسيرها يشير الإمام الطبري إلى أن هذا الأمر سنة ماضية حيث يقول: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبداً موعداً، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم سنتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم[3]، وقد استفاد ابن خلدون من هذا المعنى فعقد فصلاً في مقدمته بعنوان: الظلم مؤذن بخراب العمران[4]، إن من أسس بناء المجتمعات ومن أسباب بقائها ونمائها بسط معالم العدل في أرجائها، فالعدل ينبغي أن يكون

(١) مقدمة بن خلدون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م، مصر – القاهرة، الجزء الثاني، ص٥١٠.

(٢) سورة الكهف الآية الآية (٥٩)

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن ، للإمام محمد بن جرير الطبري، المحقق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ، ٥٤/١٨ .

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٨٧ .

ضابطاً لكل أحوالنا وصِلاتنا، سواءً في صلتنا بربنا تبارك وتعالى، أو في صلتنا بمن هم على ملتنا وشريعتنا، أو في صلتنا بالمخالف لنا، والعدل مطلوب كذلك في صلتنا بعالم المسخرات من حولنا، فإن بذلنا جهدنا واستفرغنا وسعنا حذنا نتيجتنا وحصدتنا ثمرتنا، فرد الفعل قرين بالفعل في عدالة واتزانٍ، وسنة الله لا تحابي أحداً، ومن لطائف المعاني ههنا يقول ابن تيمية رحمه الله: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة[1].

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية الحراني ،تحقيق : أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، مصر – المنصورة، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، ٦٣/٢٨

خاتمة:

مثلت هذه الورقة إضاءة قرآنية حول قضية محورية تعتبر ركيزة من ركائز نهضة المجتمعات ونمائها، وهي كيفية التعامل مع سنن الله تعالى في خلقه؛ بدءاً من المفهوم والمنظور إلى الاقتفاء والتطبيق والنماذج والأثر، ونخلص من هذه القراءة القرآنية لعدد من النتائج والتوصيات:

أولاً: نتائج:

١. القرآن الكريم كتاب الهداية والإرشاد، وواجب على الأمة إثارته واستنطاقه والتفكر في معانيه للإجابة على سؤالات العصر وكل عصر؛ ففيه تبيان لكل شيء وإجابة على كل سؤال.

٢. لله تعالى في خلقه سنن لا تتبدل ولا تتحول وهي تعني القوانين التي يسير وفقها الكون، وتنضبط على ضوئها حياة البشر أفراداً وجماعات.

٣. أولى القرءان الكريم عناية خاصة لأمر السنن الإلهية، فأفاضت الآيات في ذكرها وبينت أهميتها وثمرتها، ودعت الآيات للتعرف عليها والاعتبار بسوابق نتائجها وآثارها على المجتمعات.

٤. إن العمل بمقتضى سنن الله تعالى في خلقه ييسر للأمة إدراك أهدافها ويعجل بنهضتها وانتصارها، ويفتح لها آفاقاً لعلاج مشكلاتها ومواجهة تحدياتها.

٥. للسنن خصائص ومميزات تدعوا لإيلائها عناية خاصة فهي ربانية المصدر والمنشأ وتمتاز بالشمول والإحاطة وهي ثابتة لا تتغير ولاتتبدل.

ثانياً: توصيات:

١- لابد لعلماء الأمة من العكوف على علم السنن وإحكام قواعده، وتبيين منطلقاته وضوابطه؛ استجابة لأمر الله تعالى بالسير والنظر، وحرصاً على تحقيق شروط النصر التي تبدأ بتصحيح المفاهيم وتصويب الوجهة.

٢- لنهضة الأمة سنن وقواعد ثابتة تبدأ ببناء الإنسان بناء شاملاً يزكي النفس ويرشد العقل ويرفق بالجسد، فلا بد من مراجعة المناهج التعليمية والتأهيلية البانية لأفراد الأمة، حرصاً على إحكام اللبنة الأولى في سلم البناء الحضاري المتمثلة في الإنسان.

٣- نهضة الأمة تحتاج حراكاً جماعياً فاعلاً ؛ مصوباً في وجهته ومتماسكاً في بنائه ودائباً في عطائه، أما الحراك الفردي فهو ضعيف الأثر ، قصير الأجل، قليل الخطر، فحري بقادة الأمة أن يسعوا جاهدين لتوحيد الصفوف وتجميع الجهود، وبناء المؤسسات التي يعظم ريعها ويبقى أثرها وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

٤- لابد من تطوير آليات الإصلاح المجتمعي، ومخاطبة الأجيال المعاصرة بما يقيها من خلل الانحراف والزيغ من جهة الشبهات أو الشهوات، فحاجة المجتمعات للإصلاح دائمة متجددة، وسبيل النهضة الشاملة قرين بجهود الإصلاح الدائبة التي لا تنفك عن جميع مراحل البناء والعطاء المجتمعي.

٥- على قادة الأمة استيعاب معالم المنهج السنني القرآني الذي يصوب الوجهة ويرشد الجهد ويرتب الأولويات ويعين على بلوغ الأهداف بأقصر الطرق وأيسر السبل، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة.

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم .

١. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر- القاهرة، طبعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢. أعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر- القاهرة، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

٣. الإيجاز في شرح سنن أبي داود، لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الدار الأثرية، عمان — الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

٤. الدر المنثور في التفسير بالماثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق : مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر، ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م.

٥. دلائل النبوة، للبيهقى، تحقيق: د.عبد المعطى قلعجى، دار الكتب العلمية. ودار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

٦. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر- القاهرة، طبعة ١٩٩٠ م .

٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

٨. جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، لبنان-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٩. حاضر العالم الإسلامي، لوثورب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر— القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٥٢هـ

١٠. سنة الله في عقاب الأمم في القرآن، عبدالسلام بن نصر الشريف، دار المعراج الدولية للنشر، السعودية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م

١١. الاستخلاف والعمران في ضرورة الوعي بقيم و سنن النهوض والسقوط، سعيد شبار، مجلة التفاهم، ٢٠١٩م، العدد ٦٣ .

١٢. لسان العرب، لابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، لبنان — بيروت، الطبعة الأولى.

١٣. سنن الترمذي، للإمام الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي— مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

١٤. السنن الكبرى: للإمام البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنات، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٥. السنن الكبرى، للإمام النسائي، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان — بيروت، الطبعة الأولى،١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٦. السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، أ.د. توفيق بن أحمد الغلبزوري، على الموقع الالكتروني http://iiit.org.ma/index.phpD

١٧. السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، الناشر دار الجيل، لبنان – بيروت، ١٤١١هـ.

١٨. إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان النورسي، شركة سوزلر للنشر، مصر– القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨ .

١٩. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧

٢٠. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٢١. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت.

٢٢. على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، إبراهيم بن علي الوزير، دار الشروق، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، مصر – القاهرة.

٢٣. علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي ، رشيد كهوس ، مركز الماجد للثقافة والتراث ، دبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م ..

٢٤. الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣.

٢٥. القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، طبعة مؤسسة الرسالة ، لبنان- بيروت، ط٨ ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٦. مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا، مصر– القاهرة، عدد ربيع الأول ١٣١٨هـ، يونيه١٩٠٠م.

٢٧. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق أنور الباز – عامر الجزار ، دار الوفاء، مصر – المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٢٨. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ، طبعة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٢٩. المد والجزر في تاريخ الإسلام، للعلامة أبي الحسن الندوي، دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .

٣٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، مصر – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣١. مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٣٢. مسند الدارمي(سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي السمرقندي ، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

٣٣. المعجم الصغير للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق:محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي- دار عمار، بيروت - عمان، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر - القاهرة، ١٣٦٤هـ - ١٩٣٩م .

٣٥. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٣٦. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربى، لبنان . بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٧. مقاييس اللغة أحمد بن فارس، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، لبنان . بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٨. مقدمة بن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ، مصر – القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م، الجزء الثاني.
٣٩. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥ م
٤٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.